المقتطف

الجزء الاول من المجلد السابع والعشرين

١ يناير (كانون ٢) سنة ١٩٠٢ — الموافق ٢١ رمضان سنة ١٣١٩

رجال الاعمال والاموال

افتتح كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان تجدهُ كلهُ من اولهِ الى آخر ترجمات رجال الامَّة الاسلامية والبلاد الشرقية من بدء الاسلام الى ان فرغ المؤلف من تأليفهِ سنة ٦٧٢ للهجرة. وقد قال في مقدمتهِ انهُ لم يذكر فيهِ احدًا من الصحابة ولا من التابعين الاَّ جماعةً يسيرة وكذلك الخلفاء لم يذكر احدًا منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب. ولم يقصر كتابهُ على طائفة مخصوصة مثل العلماء او الملوك او الامراء او الوزراء او الشعراء بل كل من لهُ شهرة بين الناس ويقع السؤال عنهُ ذكرهُ واتى على احوالهِ وذكر من محاسن كل شخص ما يليق بهِ من مكرمة او نادرة او شعر او رسالة. وقد سمَّاهُ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان. ليطابق الاسم المسمَّى

هذا ما قالهُ ابن خلكان في مقدمة كتابهِ. واذا اضفنا اليهِ تاريخ الخلفاء للسيوطي وجب ان يكون الكتابان مرآة الامة وخلاصة تاريخها وعنوان مجدها والدليل الذي يستدل بهِ على احوالها ودرجة عمرانها. اما كتاب السيوطي فواضح من عنوانهِ انهُ خاص بالخلفاء فلا ينتظر ان يُعلَم منهُ شيء كثير عن غيرهم وغير المتصلين بهم رجالاً ونساء. واما وفيات الاعيان فقد نظرنا فيهِ عند كتابة هذه السطور لنرى من هم في عرف مؤلفهِ الاعيان الذين لهم شهرة بين الناس ويقع السؤال عنهم وقرأنا بعض الترجمات ترجمة ترجمة من اولهِ فوجدنا ما يلي

الاولى ترجمة ابرهيم النخعي الفقيه	الرابعة ترجمة الاسفرايني الفقيه
الثانية « ابي ثور الفقيه	الخامسة « ابي اسحق الشيرازي الفقيه
الثالثة « المزوي الفقيه	السادسة « الخطيب ابي اسحق العراقي الفقيه

السابعة	ترجمة ظهير الدين الفقيه	العاشرة	ترجمة ابرهيم الصوفي الشاعر
الثامنة	" ابرهيم بن المهدي الخليفة	الحادية عشرة	" نفطويه النحوي
التاسعة	" ابرهيم الموصلي المغني	الثانية عشرة	" الزجّاج النحوي

وقد نظرنا كذلك في سيرة المئة الاولى من الذين ترجمهم المؤلف رحمهُ الله فوجدناهم ينقسمون حسب شهرتهم كما ترى في هذا الجدول

٣٢	من الفقهاء	٣	من علماء التفسير
٢٩	من الشعراء والادباء	٣	من الزهّاد
١٧	من الملوك والامراء	٢	من المغنيين
٧	من النحاة	٣	من المؤرخين
٣	من علماء اللغة	٢	من اهل المجون والاطباء

هذا تقسيم المئة الاولى ونظن اننا لو استقرينا كل الترجمات التي في هذا الكتاب والتي في غيره من الكتب العربية لوجدناها على هذا النمط وهذه النسبة اي نحو ٣٢ في المئة منهم من الفقهاء ونحو ٢٩ في المئة من الشعراء ونحو ١٧ في المئة من الامراء ونحو ٧ في المئة من النحاة والباقون وهم ١٥ في المئة مفسرون ومؤرخون ومغنون واطباء وزهّاد واهل مجون . هؤلاء كانوا عماد الامة الذين تقوم عليهم وبهم تذكر او كما قال ابن خلكان " الذين لهم شهرة بين الناس ويقع السؤال عنهم "

أمن هؤلاء وحدهم كان قوام الامم الشرقية . اين ارباب الزراعة اين ارباب الصناعة اين ارباب التجارة . كيف كانت الامة تعيش وتنمو وترتقي . كان العرب قبل الاسلام وقبل النصرانية وفي عهد ابرهيم الخليل واسحق ويعقوب والاسباط اهل زراعة وتجارة . كانت قوافلهم تمرّ بسواحل الشام آتية الى مصر وكانت سفائنهم تمخر البحر الاحمر وبحر العرب وبحر فارس . اما المصريون والفينيقيون والاشوريون وكل الامم الشرقية التي نُشر في بلادها لواء العرب فقولنا انها كانت امماً زراعية صناعية تجارية تحصيل حاصل لانها هي التي اوجدت الزراعة والصناعة والتجارة في الدنيا . وبقي العرب اهل تجارة يطلبون الكسب بالمتاجرة ويضربون في الافاق تجاراً حتى جاء الاسلام وصاروا يضربون فيها فاتحين . فعلى مَ لا نجد في وفيات الاعيان ولا في غيره من كتب السيَر الاّ ذكر الفقهاء والشعراء والادباء والامراء والنحاة ونحوهم . أيهؤلاء قوام الامّة لا بغيرهم وهم عنوان مجدها وغيرهم بِيَل هَمَل . ان قال بذلك ابناء العصر الذي كان فيه ابن خلكان فهل يقول به ابناء عصرنا هذا ونحن نرى ارباب الزراعة والصناعة والتجارة ملكوا الخافقين نرى الملوك يقتنون المزارع والمعامل ويشاركون الشركات التجارية في اعمالها . نرى ميازيب

الثروة تنهال على ابناء الصناع والتجار نرى قصورهم وبيوتهم ومتاجرهم وسفائنهم غاصّة بكل علق فاخر ثمين ونحن نسل الامراء والفقهاء والشعراء والادباء عاكفون على التفاخر بالعظم الرميم وتفسير الآيات والاحاديث ونظم المدائح والمراثي . ومن حين يشبّ اولادنا لا يرون امامهم مثالاً يقتدون بهِ ويحيكون على منوالهِ الاّ ما يقرأونهُ في كتب السير عن فلان الفقيه وفلان الشاعر وفلان المحدّث

وقد عنّ لنا ان نستفتح هذا الجزء وهذه السنة بسير اناس ليسوا من الامراء ولا من الفقهاء ولا من الشعراء بل من ارباب الاعمال والاموال الذين نشأوا في عصر الامن واليهم يُنسَب جانب كبير من تقدّم البلدان الاوريّة والاميركيّة . وسننشر ترجمة واحد او اثنين في كلّ جزء من الاجزاء التالية واذا وقعت لنا ترجمات رجال من الوطنيين يحقّ لهم ان يذكروا بين ارباب الاعمال والاموال لم نتأخر عن نشرها لكي تكون انموذجاً يحتذيهِ طالبو النجاح في غير مناهج العلم والامارة . وغنيٌّ عن البيان اننا نضطر احياناً ان نذكر ترجمة بيت كبير لان اعضاءهُ سائرون في خطة واحدة . واذ قد تمهّد ذلك نتقدم الى ذكر الترجمات

(١) بيت رتشيلد

بيت رتشيلد اكبر البيوت المالية بلا مشاحّة ولهُ العلاقة الكبرى بالحكومة المصرية لانها مديونة لهُ بملايين كثيرة من الجنيهات وعلاقتهُ بحكومات اوربا واسيا اعظم من علاقة اي بيت كان . وكلمةٌ منهُ تكفي لخراب الوف من البيوت المالية ولعمار الوف غيرها وهو عنوان الثروة والنخوة واصالة الرأي

اصل هذا البيت من مدينة فرنكفورت بالمانيا فقد نشأ هناك تاجر صغير منذ ١٥٠ سنة وولد لهُ ولد سماهُ ماير وكان اقصى مراميهِ ان يصيّرهُ حاخاماً لكنهُ لم يمكن كما رام ابوهُ بل شبّ ماهراً في المساومة والمتاجرة فدخل في خدمة بيت اوبنهيم من صيارفة هنوفر واظهر من الحذق والامانة والاقتصاد ما جعلهُ من عداد المديرين في ذلك البيت

ثم ترك بيت اوبنهيم وعاد الى فرنكفورت واخذ يتعاطى الصرافة والتجارة واقتصر اخيراً على الاعمال المالية : وكان النصارى يكرهون اليهود و يقاطعونهم لكن ماير هذا كان محبّباً اليهم لصدقهِ وامانتهِ فلقبوهُ باليهودي الامين فاثرى وصادق امير هس فأمّنهُ على اموالهِ واستدانت منهُ حكومة الدنمارك مبالغ وافرة وكان ذلك سنة ١٨٠٤ فعظم شأنهُ جدًّا

وحدث حينئذٍ ما فتح لهُ ينابيع الثروة وذلك ان اوربا كانت كلها قائمة على بونابرت خوفاً من بطشهِ وحاول امير هس ان ينتفع من قيامها كما انتفع غيرهُ من امراء المانيا وذلك بان يجنّد

رجال بلاده ويؤجرهم للانكليز لكي يحاربوا بهم بونابرت وبلغ بونابرت ما فعل فسيَّر فصيلة من جنده لكي تقبض عليه وتنهب بلاده فلجأ الى الفرار وودع كل امواله عند ماير رتشيلد

ولما دنت الجنود الفرنسوية من فرنكفورت علم رتشيلد انها ستدخل داره لا محالة وتنهب ما فيها فاخذ اموال الامير وطمرها في قبو تحت بيته واقام في البيت مقام من يحاول الاحتفاظ باموالهِ . ودخلته الجنود الفرنسوية فاخذ يتوسَّل اليهم لكي يعفوا عنهُ وعن جانب من امواله فعفوا عنهُ ونكتهم نهبوا امواله كلها وكل ما وجدوهُ في بيته . ولو اخفى امواله لبحثوا عنها ووجدوها ووجدوا اموال الامير ايضاً فافتدى اموال الامير باموالهِ . ولما انصرفوا عن المدينة اخرج اموال الامير وارسلها الى ابنهِ في بلاد الانكليز وكان قد ذهب اليها فاستعملها فيها وهي اساس غناهُ

ولما عاد الامير الى فرنكفورت اخبرهُ رتشيلد ان امواله لم تزل محفوظة لهُ . ولا بدَّ من ان يكون قد علم كيف افتداها لهُ باموالهِ فسر بذلك ورد لهُ ما خسرهُ وابقى الاموال عندهُ ليستعملها ربحاً قليل واهدى الى ابنهِ هدايا سنية

واشتهر اسم رتشيلد حينئذٍ وكان الانكليز مضطرين ان يرسلوا النقود الى البلدان الاوربية نفقة للجنود ورشوة للملوك ولم يستطع احد ان يلبي طلبهم مثل ماير رتشيلد فربح بذلك ربحاً وافراً لان الجزاء على قدر العمل وما فيهِ من الخطر . ويقال انهُ ربح مليون جنيه بارسال النقود الى الجنود الانكليزيَّة وانصارها في اسبانيا في اقل من ثماني سنوات . ولما رأت الحكومة الانكليزية همتهُ ومقدرتهُ عينتهُ لدفع الرواتب التي كانت تدفعها الى ملوك اوربا لكي يبقوا على مقاومتهم لبونابرت . وتوفي سنة ١٨٠٢ بعد ان بلغت ثروتهُ ملايين كثيرة وجمع بنيه الخمسة قبل وفاتهِ واوصاهم قائلاً . " احفظوا شريعة موسى . ابقوا على اتحادكم . شاوروا امكم في كل عمل كبير تريدون عملهُ واعتمدوا على رأيها . احفظوا هذه الوصايا الثلاث فلا تلبث الدنيا ان تصير لكم "

وفعل ابناؤهُ حسب وصيته فبقوا على اتحادهم واقتسموا ممالك اوربا فبقي اكبرهم سيف فرنكفورت وذهب واحد منهم الى نيبلس وواحد الى باريس وواحد الى نابلي وواحد الى لندن . واتفقوا على ان يدير كلٌّ منهم القسم الذي اختص بهِ ويعتمد على اخوتهِ في الاعمال العمومية لتكون مشتركة فصار كلٌّ منهم يقام خمسة لان كل واحد منهم كان يُعلم اخوتهُ بما يقف عليهِ من الاخبار ويعينهُ ويستعين بهِ في الاعمال فاثبتوا المثل القائل ان الاتحاد قوة

واسم الولد الذي اختار بلاد الانكليز ناثان جاءها في صباهُ كما تقدَّم لكي يثري فيها . قيل قال لهُ بعضهم لما شاخ " عسى ان لا يشبَّ اولادك محبين للمال مثلك ولا اظن انك تودُّ ذلك " فقال " بل انا اودُّ واودُّ ان لا يكون لهم همٌّ غير توسيع اعمالهم وتثمير اموالهم ولا

لذة المرء بغير التعب . وجمع المال الكثير يقتضي كثيرًا من الجد والحذر ولكن حفظهُ بعد جمعهِ يقتضي عشرة اضعاف ما اقتضاهُ جمعهُ من المهارة"

ولما جاء ناثان الى بلاد الانكليز ذهب الى منشستر اولاً لانهُ كان يتاجر بالمنسوجات الانكليزية وجاء فرنكفورت تاجر انكليزي وكأنهُ احتكر البضائع الانكليزية فاغتاظ ناثان منهُ ذات يوم وقام الى منشستر ومعهُ كل ما استطاع ابوهُ ان يعطيهُ من المال ووجد البضائع رخيصة جدًّا فيها فابتاع بكل ما معهُ من النقود وربح ربحًا وافرًا . ثم رأى ان ابواب الكسب من تلك البضائع ثلاثة من المتاجرة بالمواد الاصلية كالقطن والصوف ونحوهِ ومن المتاجرة بالاصباغ التي تصبغ بها المنسوجات وتطبع ومن نسجها فقال لاصحاب معامل الغزل والنسج اني اقدم لكم المواد الاصلية والاصباغ وانتم تقدمون لي المنسوجات فتثلث ربحهُ وكان معهُ عشرون الف جنيه فصارت ستين الفًا في وقت قصير . ثم وردت عليهِ اموال اميرهس كما تقدَّم وكانت نحو ستمئة الف جنيه فمضى الى مدينة لندن واقام فيها وكان يثق ان انكلترا ستقهر بونابرت اخيرًا فترتفع اوراقها المالية عمَّا انحطَّت اليهِ حينئذٍ فجعل يشتري كل ما تصل اليهِ يدهُ منها و يساعد الحكومة الانكليزية في نقل الاموال كما تقدَّم . وكان يربي حمام الزاجل لنقل الاخبار اليهِ بسرعة لان التلغراف لم يكن قد اختُرع فعجز الماليون عن مناظرتهِ وكان تحت يدهِ جمهور من السماسرة يبيعون لهُ و يشترون فاذا اراد ان يشتري اوراقًا مالية امر بعضهم ان يبيعوا الفًا منها والبعض الآخر ان يشتروا عشرة آلاف كما يفعل كثيرون من المضاربين وهو عمل قبيح لا نظن ان اولادهُ يفتخرون بهِ او يحللونهُ

و يروى انهُ لما حدثت واقعة ووترلو التي تم فيها الفوز على بونابرت وأُخذ اسيرًا كان ناثان رتشيلد هذا مع الجنود الانكليزية فاسرع الى لندن واشاع ان الفوز كان لبونابرت فهبطت الاوراق المالية كثيرًا واباعها كلها بواسطة سماسرتهِ ولكن هذه القصة مكذوبة وحقيقتها انهُ كان لهُ وكيل في بروكسل فاسرع الى بلاد الانكليز بعد المعركة واخبرهُ بها قبلما وصل الخبر الى رئيس الوزراء وكانت خزائنهُ مملوءة من الاوراق المالية من غير ان يشتري شيئًا جديدًا منها فربح كثيرًا لكن ربحهُ الاوفر ومقامهُ السامي لم يكونا من تعاملهِ بالاوراق المالية بل من اقراض الاموال للحكومة الانكليزية وغيرها من الحكومات

وكان داهية يتاجر ويضارب ويحتكر ويرابي وخدمهُ السعد لانهُ قام في زمن الحرب وهو زمن الربح للماليين لكنهُ لم يسلم من نغص العيش . قال لهُ بعضهم مرةً هنيئًا لك فقال لهُ من اين الهناء وكثيرًا ما يصل اليَّ مكتوب يقول لي فيهِ كاتبهُ اما ان ترسل خمس مئة جنيه الى

اسكان الفلاني او اطير دماغك

ومع دهائهِ غلبهُ رجل آخر في الدهاء فان هذا الرجل رآهُ مرةً ذاهباً في المساء الى مكتبهِ مع اثنين آخرين فتبعهم ودخل المكتب وراءهم فجأة ووقع على الارض مغمى عليهِ فقام رتشيلد ورفيقاهُ يحاولون ايقاظهُ وهو لا يبدي حراكاً واخيراً تركوهُ حاسبين انهُ لا يعي على شيء وجعلوا يتذاكرون في الامر الذي جاءوا للمذاكرة فيهِ واتفقوا على شيء وخرجوا واوصوا البوّاب

(لورد رتشيلد)

ان يعتني بهِ لكن الرجل انتفض بعد خروجهم وهرول الى البورصة واشترى كل الاوراق التي اقرّ رتشيلد على ابتياعها وهو يذاكر ذينك الرجلين

وتوفي ناثان رتشيلد سنة ١٨٣٦ وكان لهُ ثلاثة ابناء اكبرهم ليونل فخلف اباهُ وفاقهُ في اصدار القروض المالية فصار كلما تولى اصدار قرض يُقدِم الماليون على الاشتراك فيهِ حالاً فاذا طلبت حكومة مليون جنيه قرضاً وتكفل رتشيلد باصدار سنداتهِ اقبل الماليون على

ابتياعها ودفع المال المطلوب حتى اذا كانت العمولة من ذلك خمسة في المئة بلغ ربحهُ منها خمسين الف جنيه واذا كان القرض عشرة ملايين بلغ ربحهُ خمس مئة الف جنيه

واشتهر ليونل رتشيلد بانهُ حفظ السلم في اوربا ومنع بنك انكلترا من الافلاس وكان اكبر سند للحكومة الانكليزية وهو الذي اقرضها المال لابتياع اسهم ترعة السويس من الحكومة المصرية واقرض اسمعيل باشا الخديوي الاسبق الاموال التي بذَّرها في ما يجدي وما لا يجدي فمهَّد الطريق للاحتلال . وتوفي سنة ١٨٧٩ وخلفهُ ابنهُ لورد رتشيلد الذي اعطي لقب اللوردية سنة ١٨٨٥ وهو المرسوم في الصفحة السابقة

ولبيت رتشيلد مآثر كثيرة شملت ابناء امتهم والبلدان التي استوطنوها وهم من اكبر دعائم الحضارة في هذا الزمان وبهم تفاخر الاوربيين والاميركيين فنقول لهم هؤلاء من الاسرائيليين ابناء فلسطين وقد غالبوكم في بلادكم وغلبوكم ولولا فساد الاحكام الذي استولى على هذا القطر والقطر الشامي منذ الف سنة فاكثر لبقي زمام المال في يد ابناء الشرق

(٢) وليم هنري سمث بائع الجرائد

لا نظن ان قارئًا من قرَّاء المقتطف يقرأ هذا العنوان الاَّ ويستغرب اننا نحشر باعة الجرائد بين ارباب الاموال ويزيد استغرابهُ اذا علم ان صاحب الترجمة ارتقى من بيع الجرائد الى ان صار وزيرًا من وزراء الانكليز ورئيسًا لمجلس النواب الانكليزي فوق ما جمعهُ من الثروة الطائلة من بيع الجرائد ومات منذ عشر سنوات وترك مليونًا و ٧٢٦ الف جنيه عدا العقارات الكثيرة ولا يزال بيتهُ بيع الجرائد الى الآن

كان ابوهُ وليم سمث بائع جرائد وورق واقلام وما اشبه مما يطلبهُ الكتاب وكان عالي الهمة لا يكلُّ ولا يملُّ جعل شعارهُ "السابقون السابقون" فكان يستلم الجرائد من المطابع حال صدورها ويوزع بعضها في انحاء المدينة ويرزم البعض الآخر ويرسلهُ الى الجهات البعيدة واستخدم اناسًا كان يركبهم خيولاً سريعة العدو لكي يسبقوا غيرهم في ارسال الجرائد الى اصحابها . ولما شبَّ صاحب الترجمة اراد ان ينتظم في سلك خدمة الدين فمنعهُ ابوهُ عن ذلك واشركهُ معهُ في عملهِ وكان الاب صعب المراس مع ما اتَّصف بهِ من الهمة والانصاف لكن الابن كان من الين الناس عريكة كما كان من اعلاهم همةواكثرهم اجتهادًا فكان ينهض كل يوم الساعة الرابعة صباحًا ويلبس ويفطر ويمضي الى مكتبهِ فيكون فيهِ الساعة الخامسة صيفًا وشتاءً ويشرع للحال في فرز جرائد الصباح ولفها وارسالها الى حيث يجب ان ترسل واتسع عملهُ بسرعة فائقة واضاف الى بيع الجرائد التزام بيع الكتب في محطات سكك الحديد وكان يبيع فيها الكتب المفيدة

والروايات الادبية لاغير فكان ذلك من افعل الوسائل في اصلاح آداب الامة الانكليزية

ونشبت حرب القرم وبعثت جريدة التيمس مكاتباً خاصاً اليها وكان التلغراف قد مُدَّ وصارت الاخبار تنقل به فزاد اقبال الناس على قراءتها اضعافاً كثيرة وكان وليم هنري سمث البائع الوحيد لها في البلاد الانكليزية فزاد ربحهُ من ذلك ومن ازدياد سكك الحديد وكثرة محطاتها فصار معدوداً بين ارباب الثروة وانتُخب عضواً في مجلس النواب سنة ١٨٦٨ وجُعل

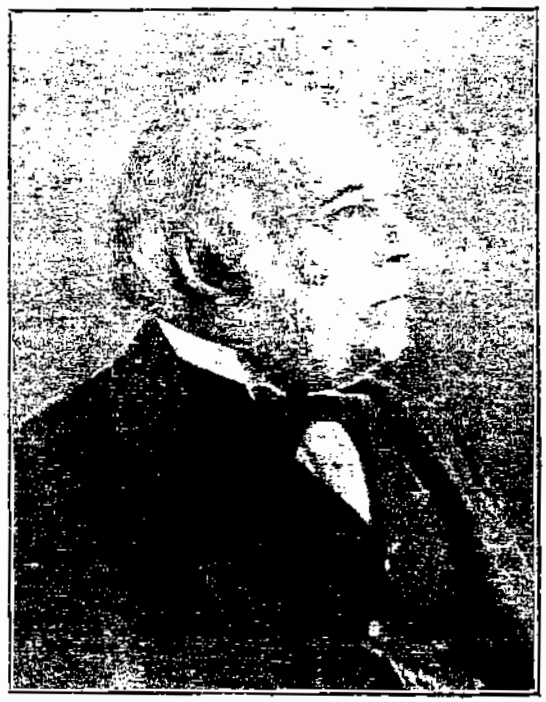

(وليم هنري سمث)

وزيراً للمالية سنة ١٨٧٤ وللبحرية سنة ٨٧٧. وللحربية سنة ١٨٨٥ واعيد الى وزارة المالية في وزارة سلسبري السابقة وجُعل رئيساً لمجلس النواب وتوفي وهو في ذلك المنصب . ولما جُعل وزيراً للبحرية سلَّم اشغالهُ لاناس اكفاء لادارتها واستراح من عنائها . ويعدهُ قومهُ من دعائم بلادهم وحسبهُ فخراً انهُ ربح من بيع الكتب والجرائد مليونين من الجنيهات ولم يبع قصة مجونية ولا باع جريدة تطبع يوم الاحد كي لا يخل بعقيدته الدينية